مذهب ابن تومرت
من الوحدة الاديولوجية إلى التوحيد السياسي

تمثل الدعوة الموحدية التي صاغها المهدي بن تومرت ذروة النضج الإيديولوجي إذا ما قيست بالدعوات السابقة التي شهدها الغرب الإسلامي . وحسبها ما حققت من أهداف سياسية لعل من أهمها « توحيد » بلاد المغارب فضلاً عن الأندلس تحت نظام مغربي قح وبزعامة مغربية صرفة للمرة الأولى في تاريخ المغرب الإسلامي .

ومرد ذلك - فيما نرى - إلى « المصالحة » المذهبية التي تضمنتها الصيغة « الموحدية » بين كافة المذاهب والنحل التي توخت أهدافاً سياسية والتي لم يقدر لها أكثر من إقامة دول إقليمية لم تنج في توحيد التراب المغربي ؛ فكانت لذلك - فيما نرى - تجارب تعبر عن « المراهقة السياسية » إن صح التعبير .

ومن هنا تبرز التجربة الموحدية إديولوجياً وسياسياً لتنفرد - دون

غيرها - بميزات خاصة بفضلها أمكن تحقيق الوفاق العقيدي والقضاء على المرطقات والمذاهب المتطرفة برغم تحقيق طابعها « التوفيقي » أو « التلفيقي » فيما يرى البعض . وقد أهل هذا « التجانس » العقيدي - بالإضافة إلى الطابع الأمازيغي في صياغة الدعوة وتبني « مشروعها » السياسي - لإتمام الوحدة السياسية ووضع حد للفوضى والتشرذم ، فضلاً عن طرد الخطر النورماني من إفريقية و« تحجيم » الخطر النصراني في الأندلس . فإذا أضيف إلى ذلك النتائج الحضارية وأهمها إعادة سيولة النشاط التجاري بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب ، كذا إتمام « تعريب » البربر ؛ أدركنا المكانة الخاصة والفريدة التي تبوأتها التجربة الموحدية في تاريخ الغرب الإسلامي بلا منازع .

ومهمة هذه الورقة تتحدد انطلاقاً من وفرة مصادر التاريخ الموحدي خاصة بعد ازدهار مدرسة التاريخ المغربي والأندلسي في ظل الموحدين ، كذا وفرة الدراسات الحديثة عن التجربة الموحدية سياسياً وحضارياً . وبرغم ذلك تخلو هذه الدراسات من تناول موضوعي لطبيعة الدعوة الموحدية وتفسير نجاحاتها السياسية والحضارية . ومرد ذلك - فيما نرى - إلى إلغاز عقيدة الموحدين التي تضمنت آراءاً ورؤى جرى اقتباسها من معظم المذاهب والنحل التي شهدها الغرب الإسلامي . بل وجمعها بين الأضداد خاصة بين آراء أهل السنة ونظريات الشيعة على تعددها وتنوعها وتناقضها في غالب الأحيان . هذه واحدة . أما الأخرى فتكمن في تغافل - إن لم يكن غفلة - الدارسين إلى ما شهده مسرح التاريخ الإسلامي العام من صراعات إديولوجية كانت تغطية لصراعات إجتماعية كما سنبين في حينه .

وأخيراً القصور المنهجي المتمثل في الفصل بين العقائد ـ التي أهتم دارسو الفكر ببحثها ـ وبين حركة التاريخ السياسي التي انصرف المؤرخون لرصدها .

إنطلاقاً من هذه السلبيات تتصدى « الورقة » لتجاوزها وفق منهج قوامه ما يلي :

أولاً : الإفادة من المادة المصدرية الوفيرة والثرية التي تتعلق بالتجربة الموحدية والتي لم تقرأ بعد قراءة علمية رصينة .

ثانياً : التعويل على الربط بين الإديولوجيا والواقع العياني التاريخي ؛ أي الجمع بين الرأي والفعل خصوصاً وأن الحركات السياسية المعبرة عن واقع « سوسيو ـ اقتصادي » في تواريخ الإسلام بله في تواريخ العصور الوسطى عموماً كانت تستمد دعواتها من الدين .

ثالثاً : توسيع دائرة البحث والنظر لتشمل العالم الإسلامي بأسره إبان الحقبة الزمنية لموضوع الدراسة ؛ بله الاسترشاد بالتراكمات المعرفية والتاريخية في الغرب الإسلامي خصوصاً والشرق بوجه عام قبيل العصر الموحدي .

رابعاً : تتبع رحلة ابن تومرت في المغرب والأندلس ودول المشرق بهدف الوقوف على ينابيع الأفكار التي نهل منها قبل صياغة مذهبه . وقد استوجب ذلك معرفة شيوخه والوقوف على منطلقاتهم الفكرية بل وانتماءاتهم الطبقية فضلاً عن ميولهم السياسية .

خامساً : تحليل نسقه الفكري تحليلاً دقيقاً وتفكيك منظومته في محاولة

لرد آرائه إلى المذاهب الأخرى وخاصة ما تعاقب منها في تاريخ الغرب الإسلامي .

سادساً : إعادة تركيب الحقائق ـ بعد تحقيقها ـ من أجل وضع نسقه الفكري، في إطاره الصحيح ، مسترشدين في ذلك بالبعد السياسي للحركة الذي يشكل حجر الزاوية في صياغة المذهب الموحدي .

سابعاً : تفسير المعطيات والنتائج في ضوء رؤيتنا الصراعية الشمولية التي طالما ألححنا عليها واعتمدناها في دراسات سابقة .

ثامناً : طرح حصاد الدراسة ـ الذي نعتقد في جدته ـ للبحث والمناقشة .

نستهل الدراسة بعرض موجز للما وراء المذهبي المغربي منذ انتشر الإسلام في بلاد المغارب إلى نهاية القرن الخامس الهجري ومدى حظه من النجاح والفشل في تحقيق غاياته البعيدة ؛ وهي بالأساس « وحدة التراب المغربي » .

وفي هذا الصدد نقرر أن انتشار الإسلام في بلاد المغرب جاء متأخراً وكان متعذراً بسبب استغراق الفتوحات الإسلامية ما ينيف على سبعين عاماً . وما ترتب على ذلك من مزالق عثرت وعسرت أسلمة المغاربة وتعريبهم من ناحية [1] وتأخر « الاسهامات » المغربية المذهبية عن مثيلتها في الشرق بل وقوف المغاربة موقف « المتلقي الحذر » لما يرد من الشرق من ناحية أخرى .

كذا نلمح إلى طبيعة الفتوحات الأموية التي اتخذت شكل « الغزو » بدلاً من « الجهاد » وما أسفر عن ذلك من ارتباط المنظور

العقيدي للمغاربة بالمنظور السياسي والإجتماعي وهو ما نصطلح عليه باسم « أدلجة » العقائد أو « سوسيولوجيا الدين » . وهذا يفسر إخفاق مذهب الخوارج في الشرق ونجاحه في بلاد المغرب باعتباره « إديولوجية » ثورية ذات مضمون إجتماعي ديمقراطي [٢] .

وعلى الرغم من انتشار مذهب الخوارج بين البربر في سائر بقاع المغرب إلا أنه لم ينجح في تحقيق وحدة مغربية سياسية . وأقصى ما أنجزه تأسيس دول ثلاث لم تعمر طويلاً [٣] . وهذا راجع - فيما نرى - إلى الافلاس الإديولوجي حيث تفشي الخلاف والصراع بين الإباضية والصفرية من ناحية ، وتحول الفكر السياسي الخارجي عن مبدأ الشورى والإختيار إلى مبدأ النص والتوريث من ناحية أخرى . هذا بالإضافة إلى كون مؤسسي الدولتين المدرارية والرستمية ينتميان إلى أصول من غير البربر . كل هذا يفسر لماذا اندثر المذهب الخارجي من سائر بلاد المغرب باستثناء جيوب مغلقة في جبل نفوسه ووادي الميزاب .

أما مذهب المعتزلة فقد سبق أن أثبتنا في دراسات [٤] سابقه تعويله على دعوة سياسية قدر لها أن تنتشر في بعض نواحي إفريقية والمغربين الأوسط والأقصى . وما يعنينا فشل هذه الدعوة في تأسيس كيانات سياسية اعتزالية قحه . وتفسير ذلك كامن في وعورة وإلغاز عقائدها التي تميل إلى التفلسف بما لا يتلاءم مع إسلام المغاربة السني المالكي النصي من ناحية واندماج دعوتهم في الدعوة الزيدية الشيعية من ناحية أخرى . إذ أسهموا بدور في إقامة دولة الأدراسة بالمغرب الأقصى سنة ١٧٢ هـ .

وهذا يقود إلى الحديث عن تجربة التشيع في بلاد المغرب سواء

أكان زيدياً معتدلاً أو إسماعيلياً متطرفاً . فبرغم استناد دولة الأدارسة إلى زعامة علوية ـ إدريس بن عبد الله ـ إلا أن الدولة لم يقدر لها التوسع والإنتشار بل ما لبثت أن تمزقت في عهد إمامها الثالث محمد بن إدريس حتى أجهز عليها الشيعة الفواطم . ونحن نعزو ذلك بالدرجة الأولى إلى كون الأسرة الحاكمة من غير البربر على الرغم من تعاطف المغاربة مع آل البيت .

وبالمثل نفسر عدم إنتشار المذهب الزيدي رغم اعتداله بين المغاربة إلى إحجامهم عن العقائد الشيعية المعقده . وحسبنا أن الأدارسة أنفسهم لم يحرصوا على نشر مذهبهم لذات السبب وسمحوا بأن تجري المعاملات في دولتهم وفق المذهب المالكي (٥) .

أما عن الشيعة الإسماعيلية ؛ فقد وفدت دعوتهم إلى بلاد المغرب ونجحت في توحيد المغرب الأدنى وإفريقية وبعض نواحي المغربين الأوسط والأقصى . لكنهم عجزوا عن إتمام وحدة المغرب كاملة لعدة أسباب ؛ منها إلغاز معتقداتهم وفساد دعاتهم فضلاً عن سياستهم الإقتصادية الجائرة (٦) ، وأخيراً تعويلهم على الانسحاب إلى مصر من أجل التوسع في الشرق ؛ خصوصاً بعد أن اندلعت المقاومة الأمازيغية على اختلاف فصائلها ومذاهبها ضد الفاطميين . وهذا يفسر انقراض المذهب الإسماعيلي وامتحان أتباعه في عهد الزيريين .

أما عن المذهب السني ؛ فقد أقبل المغاربة على مذهب الإمام مالك لأسباب وقف عليها ابن خلدون وغيره . وبرغم ذلك لم يقدر للمالكية من دور سياسي إلا فيما يتعلق بمعارضة الدول السابقة ذات الإديولوجيات المغايرة . ونحن لا نوافق الرأي القائل برد أسباب عدم

تأسيسهم دولاً مغربية إلى حض الإمام مالك أتباعة على « عدم التقرب من السلطان » . دليلنا على ذلك اتخاذ المرابطين مذهب مالك إديولوجية نجحت في تأسيس دولة ضمت المغربين الأوسط والأقصى فضلاً عن الأندلس .

لكن هذه الدولة شاخت في عنفوانها وذلك بالرغم من استنادها إلى داعية وحكام من البربر . ويرجع سقوطها من ثم إلى أسباب أخرى سبق شرحها في دراسة سابقة (٧) . وما يعنينا منها غلو فقهاء المالكية إلى حد خروجهم عن تعاليم مالك نفسه فضلاً عن إغفالهم الأصول ـ القرآن والسنة ـ وتشبثهم بالفروع ؛ وما تلى ذلك من إثارة أصحاب المذاهب الأخرى (٨) .

إن آفة الغلو والتطرف التي فشت في المغرب بشكل يسترعي الإنتباه قرينة موضوعية على إفلاس التجارب الإديولوجية السابقة . وقد تجلى ذلك في تطرف خوارج المغرب وخاصة الصفرية فيما عرف بمذهب « بورغواطة » الذي تأثر بالمعطيات الإقليمية ومال إلى الغلو (٩) . كما تطرفت عقائد الشيعة وكثر أدعياء النبوة كما هو الحال بالنسبة لحميم المتنبي (١٠) . كذا تفاقم الغلاة من الشيعة البجلية في بلاد السوس الذين كانوا لا يرون الحق إلا في مذهبهم بما أخرجهم عن المذهب الشيعي نفسه (١١) .

إن ظهور هذه الحركات المتطرفة كان تعبيراً عن الخواء المذهبي الذي كان نتيجة لحالة الفوضى السياسية .والكساد الإقتصادي والتناحر الإجتماعي الذي ران على بلاد المغرب إبان عصر « الفوضى الزناتية » .

هكذا اقترن الإفلاس الإديولوجي بالإفلاس السياسي وتعقدت مشكلات بلاد المغرب بحيث دعت الضرورةإلى دعوة جديدة تقيم دولة جديدة تقدم حلولاً لمشكلات المغرب التي تفاقمت في عصور المذاهب السابقة والكيانات السياسية السابقة أيضاً . لم يكن هذا الحل إلا موضوع الدراسة وهو مذهب ابن تومرت ذو الطابع التوحيدي أديولوجياً وسياسياً .

نقرر ابتداء أن تفاقم المشكلات السياسية والإقتصادية والإجتماعية وخواء الإديولوجيات المذهبية في المغرب ، فضلاً عن تعرض الغرب الإسلامي لأخطار « دار الحرب » ـ النورمان في صقلية والإسبان في الأندلس ـ كان تعبيراً عن شيوع ذات الظواهر بعينها في الشرق الإسلامي أيضاً على إثر نجاح الحركة الصليبية في إقامة ممالك أربع في بلاد الشام .

وقد سبق لنا أن قارنا بين نشوء وتدهور وسقوط دولة المرابطين في الغرب الإسلامي وبين مثيلتها الإمبراطورية السجلوقية (١٢) بما يغني عن اللجاج . وما يعنينا هو إثبات وحدة الصيرورة التاريخية للعالم الإسلامي بأسره بما يدحض المزاعم التي تفترض قطيعة إبستمولوجية بين المشرق والمغرب نتيجة القطيعة السياسية . وحسبنا أن نثبت في هذا المقام بأن قطيعة سياسية لم تقع وأن تفشي ظاهرة الإقطاع العسكري في العالم الإسلامي بأسره هي التي أفرزت إمبراطوريتي السلاجقة والمرابطين . وحسبنا أن قيامهما معاً كان نتيجة للصراع بين البورجوازية والإقطاع وأن حسم الصراع لصالح الإقطاع على يد البدو العسكر السني يمثل قاسماً مشتركاً بين كل من الإمبراطوريتين . ونحن نطرح للبحث دور الغزالي المنظر لهذين النظامين السلجوقي

والمرابطي إلى حد الإفتاء « بجواز إمامة العسكر المتغلب » . كما كان همزة الوصل بين بغداد ومراكش .

وإذا كان من أهم أسباب ضعف وأنهيار السلاجقة في الشرق دور الحركة الإسماعيلية المعبرة عن موقف القوى البورجوازية ؛ فإن انهيار وسقوط المرابطين يعزي إلى دور الموحدين الذين ارتكنت إديولوجيتهم على كثير من آراء وأفكار الإسماعيلية ؛ مع الأخذ في الإعتبار بالمعطيات المغربية الإديولوجية . ولسوف نعود في نهاية المطاف ـ بعد دراسة الدعوة الموحدية واتصال صاحبها بدعاة الباطنية ـ للكشف عن مزيد مما يلقي الضوء على هذه الفكرة التي أحسب أنها مبتكرة .

إن تتبع أصل ابن تومرت ونشأته ورحلته عبر المغرب والأندلس والمشرق ، واستقصاء الهويات المذهبية لشيوخه قمين بالكشف عن المذهب الذي صاغه . والهدف السياسي الذي توخاه . كما يلقي بعض الضوء على طبيعة الصراع الدائر في العالم الإسلامي بين النصية السلفية وبين الليبرالية العقلانية أو إن شئت بين الإقطاع والبورجوازية .

أما عن أصله ونسبه فقضية اختلف الدارسون بصددها ؛ وما يعنينا أنه بربري من هرغة المصمودية كما ذهب ابن خلدون (١٣) ـ وهو حجة في أنساب البربر ـ تأسيساً على « أن الرئاسة لا تكون على قوم في غير أهل جلدتهم » . أما عن عمله فقد كان تاجراً . وإذا ما علمنا أن عبد المؤمن بن علي ساعده الأيمن كان من قبيلة « كُومية » إحدى بطون بني فاتن من البربر البتر وأنه كان تاجراً ووالده حرفي يصنع الفخار (١٤) ، وأن مصموده والبربر البتر تعرضوا لعسف المرابطين ؛

أدركنا تأثير الوضع الإجتماعي والطبقي في اتجاه قائدي الحركة الموحدية الإديولوجي والسياسي في إطار الصراع بين البورجوازية والإقطاع .

لقد درس محمد بن تومرت بالمغرب القرآن وعلومه والحديث والفقه وعلوم اللسان والأدب (١٥) .

ونعلم أنه رحل إلى الأندلس لدراسة علم الكلام الذي صادر عليه المرابطون في المغرب . وهناك التقى بجماعات المريدين الذين تمحور فكرهم في المزج بين التشيع والتصوف . ومعلوم أن حركة المريدين كانت تعارض المرابطين ؛ إذ أن فكرهم كان حصاد النشاط البورجوازي التجاري الذي ازدهر في المرية . ومعلوم أيضاً أن التصوف والتشيع قد اندمجا في الشرق بحيث قامت « مصالحة توفيقية » بين سائر فرق المعارضة تحت تأثير تسلط المذهب الأشعري ؛ مذهب السلاجقة . ولقد لعب التصوف دوراً محورياً في هذا الصدد (١٦) . ولسوف يكون لذلك تأثيره على ابن تومرت حين صاغ مذهب الموحدين .

ثم رحل ابن تومرت إلى الشرق (١٧) فزار مصر والشام وأخذ عن شيوخهما . والثابت أن تأثيرات الإسماعيلية كانت أشد تكثيفاً في هذين المصرين اللذين جمعتهما الدولة الفاطمية . كما نعلم أن دعاة الإسماعيلية طفقوا يروجون للمذهب بعد سقوط الفاطميين ، وامتدت دعوتهم إلى سائر أقاليم الشرق والغرب الإسلاميين يدعون من جديد للمهدي المنتظر . وقد لعبت رسائل إخوان الصفا التي وصلت الأندلس دوراً ممهداً في هذا الصدد بين النخبات المثقفة . وانتهى المطاف بابن تومرت إلى بغداد حيث أمعن في تلقي أصول

الفقه وأصول الـدين (علـم الكلام) عـلى شيوخ من أمثال ابي بكر الشـاشي وعلي بن المبـارك . ويذهب الـدارسـون إلى أنهما كـانـا من الشافعية . ونحن نؤكد كونهما على المذهب الإسماعيلي تـأسيساً عـلى كشف معرفي جديد فحواه انخراط الإسماعيلية في المذهب الشافعي من باب التقية والستر[١٨] . وقيل أن ابن تومرت قد التقي بالغزالي ودرس عليه رغم نفي بعض الدارسين . لكننا لا نجد غضاضـة في إثبات الواقعة خاصة وأن الغزالي قد غير موقفه إزاء المرابطين الذين لم يتورعوا عن حرق كتبه في الغرب الإسلامي وخاصة كتاب « الاحياء » الذي صب فيه الغزالي جام غضبه على المرابطين والفقهـاء المالكيـة سواء بسواء[١٩] . وإذا ما علمنا أن الغزالي في أواخر أيامه قـد تخلى عن خدمة السلاجقة وأنـه مزج بـين الأشعريـة والتصوف ومـال إلى التفلسف ؛ أدركنا كيف عول ابن تـومرت عـلى « آلية التـوفيق » في طرح مذهبه بالقدر الذي يحقق أهدافه السياسية .

ولسوف نلاحظ مصداق ذلك في اعتمـاده آراء سنية أشعـريـة وظاهرية محافظة إلى جانب أخرى شيعية واعتزالية وخارجية .

ونحن في غنى عن سرد قصة رحلته من المشرق إلى المغـرب إلا بالقدر الذي يكشف عن هذا الهدف السياسي الـذي من أجله صاغ مذهبه . إذ نعلم أنـه مر بمصر وتـونس وقسنطينـة وبجايـة وتلمسان وفـاس ومـراكش وأغمـات حتى وصـل إلى تنملل . وفي كـل تلك البلدان كان يجهر بدعوته التي لا يشك أحد الباحثين[٢٠] النابهين في أنها كانت تـستهدف العالم الإسلامي بأسره . ونجد ما يؤيـد ذلك في المصادر[٢١] التي تذهب إلى أنه لم يعدم أنصاراً في مصر ذاتها كـانوا يتشبثون بدعوته رغم ضراوة المد السني إبان الحكم الأيوبي .

كانت دعوة ابن تومرت ـ كما ذكرنا ـ تستهدف غايات سياسية كبرى . ولعل من أهم القرائن في هذا الصدد ؛ الإعداد الدعائي والعسكري والتنظيمي الباهر الذي لا نشك في اقتباسه عن الإسماعيلية في الشرق . وهذا يدحض آراء بعض الدارسين الذين قصروا هدف الدعوة على الاحتساب عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وفي ذات الوقت يؤيد رأي أحد الباحثين المغاربة النابهين (٢٢) في أن الدعوة كانت « أشبه بالحزب السياسي أو التنظيم الثوري الذي يدفعه الطمع في السيطرة على الحكم إلى النقمة على الأوضاع والتخطيط لمحاربتها وتقويمها » . ويسوق في هذا الصدد عدداً من القرائن هي :

أولاً : إنطواء الدعوة على تنظيم فكري نخبوي للعمل المذهبي وآخر جماهيري للعمل المسلح (٢٣) .

ثانياً : جمع ابن تومرت في دعوته بين اللسانين العربي والبربري .

ثالثاً : طرح فكرتي « المهدوية والوصية إدراكاً لحقيقة تعاطف المغاربة مع آل البيت ووجود متشيعين كانوا ينتظرون عودة المهدي .

رابعاً : إستخدام أساليب الدجل والشعوذة إلى جانب العنف والقسوة .

ونجد مصداق ذلك فيما ذكره البيذق (٢٤) بأن « البشير كان يخرج المنافقين والخبثاء من الموحدين حتى أمتاز الخبيث من الطيب . ورأى الناس الحق عياناً وازداد الذين آمنوا إيماناً وذاق الظالمون النار فظنوا أنهم موافقوها ومالهم عنها من محيض » .

وفي نفس المعنى تؤكد الروايات أن أصحاب المهدي لم يتورعوا عن الإثخان في الخصوم و« خاصة السوقة الذين كانوا يعلقونهم على أبواب المدن » .

ومن جانبنا يمكن أن نسوق قرائن جديدة تضيء البعد السياسي للدعوة لعل من أهمها ما يلي : ـ

أولاً : إشاعة ابن تومرت نسبته إلى آل البيت وبالذات إلى الحسن بن علي بن أبي طالب ؛ اذ ورد في إحدى رسائله إلى المرابطين « . . . . من محمد بن عبد الله القرشي الهاشمي الحسن الفاطمي » (٢٥) ، في ذات الوقت الذي أخفى فيه تشيعه على العوام (٢٦) . وهو في ذلك قد تشبه فيما نرى بالأدارسة .

ثانياً : تبديل أسماء كبار رجاله إلى أسماء الراشدين من الخلفاء وخاصة أبي بكر الصديق وعمر (٢٧) . وهو في ذلك يحتذي المذهب الزيدي بما يفيد في كسب ولاء الشيعة والسنة في آن . وهي نفس السياسة التي أتبعها الأدارسة من قبل .

أما عن مذهب ابن تومرت فقد اختلفت الآراء بصدده ، يذكر ابن خلدون (٢٧) أن قوام عقيدة الموحدين هي الأشعرية ؛ « إذ لقي ابن تومرت أئمة الأشعرية من أهل السنة وأخذ عنهم واستحسن طريقتهم في الإنتصار للعقائد السلفية والذب عنها بالحجج العقلية » .

ويضيف باحث معاصر (٢٩) أن مذهب ابن تومرت « مزيج من الأشعرية ومبادىء الشيعة الإمامية » . ويرى ثالث (٣٠) بأن المذهب « توفيق بين تعاليم السنة وأفكار المتكلمة والفلاسفة » .

ونحن نرى أن صيغة ابن تومرت توفيق بين كل ما ذكره السابقون بالإضافة إلى مذاهب أخرى لم تعدم أنصاراً في المغرب مثل المذهب الظاهري والاعتزال ومذهب الخوارج .

حجتنا في ذلك قراءة أصول المذهب في كتابه « أعز ما يطلب » في محاولة لردها إلى المذاهب المختلفة التي أشرنا إليها .

فبالنسبة لتأثيرات أهل السنة فقد تجلت في المذهبين الأشعري والظاهري ؛ إذ أخذ ابن تومرت عن الأشعرية اراءهم في إثبات الصفات (٣١) ، كذا الرجوع إلى القرآن والسنة وإجماع الصحابة . وفي ذلك محاولة لإظهار زيف المالكية الذين عولوا فقط على الفروع . ولعله تأثر في هذا الصدد بالغزالي الذي تذكر المصادر (٣٢) أنه نصحه بعدم التعويل على رأي المعتزلة في تلك القضية لأسباب سياسية فحواها أن المغاربة يميلون إلى النصية .

وربما كان إلحاح ابن تومرت على إثبات الصفات مجاراة للمذهب الظاهري الذي يرى أن « أسماء الله الحسنى لا يجوز فيها أي قياس أو اشتقاق أو اصطلاح (٣٣) » . كما أنه بذلك يرضي قطاعاً عريضاً من المالكية يمكنه من كسب ولائهم بدلاً من المرابطين . وفي ذلك دلالة على ضآلة الجوانب الإعتقادية عند ابن تومرت بالقياس إلى الأهداف السياسية .

وبرغم مجاراته للمذهب الظاهري فيما يتعلق بقضية الصفات حيث قال أن « أسماء الباري سبحانه موقوفة على ذاته ، لا يسمى إلا بما سمي به نفسه في كتابه أو على لسان نبيه » (٣٤) . إلا أنه خالف الظاهرية في اعتماده العقل للبرهنة على وجود الله . يقول ابن تومرت « . . . العقل يعلم وجود الباري سبحانه والضرورة ما لا يتطرق إليه

الشك ولا يمكن العاقل دفعه » [٣٥] .

وبرغم اعتماده العقل في التدليل على وجود الباري ؛ فقد أنكر حرية الإرادة عند الإنسان مردداً في ذلك أقوال الجبرية ؛ إلى حد القول بالخوارق والمعجزات على أساس « أن العقل ليس له في الشرع مدخل » [٣٦] .

هكذا لم يأخذ ابن تومرت من مذاهب أهل السنة إلا ما يتعلق بالقشور وبالقدر الذي يخدم دعوته سياسياً .

أما عن جوهر مبادىء المذهب فقد اقتبسه ابن تومرت من مذاهب قوى المعارضة سواء أكانوا معتزلة أو خوارج أو شيعة ؛ الأمر الذي يؤكد أن دعوته كانت رد فعل فكري وسياسي وإجتماعي لهيمنة السلفية النصية الإقطاعية العسكرية كما أشرنا سلفاً وكما سنوضح فيما بعد .

فقد جرت مصالحات مذهبية بين قوى المعارضة بحيث اقتربت أفكارها تحت تأثير الضربات التي حلت بها على يد النظم العسكرية السنية [٣٧] ، لقد تواءمت أفكار فرق الخوارج مع بعضها البعض ، كذا مع الإعتزال . ومعلوم أن الوفاق بين المعتزلة والشيعة عموماً والزيدية على نحو خاص قد عقد منذ القرن الثالث الهجري .

ولا غرو ؛ إذ ينهل ابن تومرت من معين الإعتزال سواء في محاربة « التشبيه والتجسيم » ، أو في قضيتي « العدل والتوحيد » بما يخدم أغراضه الدعائية لكسب معتزلة المغرب لدعوته من ناحية والإفادة من « عقلانيتهم » في محاربة خصومه « النصيين » من ناحية أخرى ، وهذا يحدونا إلى رفض دعاوي بعض الدارسين [٣٨] الذين ذهبوا ـ خطأ ـ

إلى انقراض المعتزلة من المغرب بعد سقوط الأدارسة . إذ ثبت وجود جماعات منهم بالمغرب الأقصى خصوصاً في ظل المرابطين برغم ما حل بهم من بطش واضطهاد [٣٩] . كما أثبت المراكشي [٤٠] أن فكرة « التوحيد » عند ابن تومرت كانت تستهدف استرضاء جمهور المعتزلة في المغرب . وليس أدل على ذلك من تبجيله للعقل إذ قال : « . . . . أفي الله شك فاطر السموات والأرض ؛ أخبر تعالى أن فاطر السموات والأرض ليس في وجوده شك . وما انتفى عنه الشك وجب كونه معلوماً . فثبت بهذا أن الباري سبحانه يعلم بضرورة العقل » [٤١] .

وعن الخوارج أخذ ابن تومرت أهم مبادئهم الثورية وهو « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » . كذلك أخذ عنهم أساليب العنف والبطش في معاملة الخصوم .

أما عن مذاهب الشيعة ؛ فقد نهل منها ابن تومرت جوهر عقيدته ؛ الأمر الذي حدا بألفردبل [٤٢] إلى الجزم بأن عقيدة ابن تومرت « تعد مذهباً شيعياً حقاً » ومع ما ينطوي عليه هذا الرأي من غلو ؛ إذ نجد ابن تومرت يروي أحاديث عن السيدة عائشة [٤٣] ؛ إلا أنه بالغ الدلالة على أن التشيع كان المصدر الأساسي للعقيدة الموحدية . إذ اعتمد ابن تومرت فكرة « العصمة » التي لا نجد لها نظيراً في المذاهب الأخرى . يقول في هذ الصدد » « . . . أنا محمد بن عبد الله بن تومرت الإمام المعصوم ، وأنا مهدي آخر الزمان » [٤٤] . وهذا يدحض رأي أحد الدارسين بأن التشيع الإسماعيلي لم يصل إلى المغرب الأقصى . وحتى لو صح ذلك فإن ابن تومرت تلقف الفكرة إبان رحلته بالأندلس حيث كان دعاة الإسماعيلية من أمثال قاسم بن سيار القرطبي يروجون لمذهبهم .

كـذا إبان زيـارته مصر والشـام والعراق حيث كـان نشـاط الـدعـاة الإسماعيلين أكثر بروزاً . وعلى كل حال فإن اعتبار ابن تومرت نفسه « إماماً معصوماً » كـان سياسـة منـه لإحكـام الـدعـوة السيـاسيـة لشخصه [٤٥] .

وبالمثل كان قوله « بالمهدوية » يبرز الجانب الإجتمـاعي لدعـوته خاصة وأن الفكرة قد راجت بالمغرب الأقصى وبالذات إقليم السوس مـوطن الشيعة البجلية . . ومعلوم أن « المهدوية » شكلت قـاسـماً مشتركاً في سائر المذاهب ذات الدعوات السياسية .

قصارى القول ـ أن مذهب ابن تومرت نهل من سائر المذاهب والنحل سواء مـا وجد منهـا بالمغـرب أو الأندلس أو المشرق ، وأنها كـانت صيغة « تـوفيقية » « تـوحيديـة » عـلى الصعيـد الإيديـولـوجي والصعيد السياسي ؛ بحيث استهدفت ـ في التحليل الأخير ـ القضاء عـلى الاختـلافـات المـذهبية عن طـريق « إرضـاء أصحـاب الآراء والمذاهب المختلفة » [٤٦] ، تمهيـداً لمشروعـه السياسي الـطموح في توحيد الغرب الإسلامي كذا الشرق الإسلامي إن استطاع إلى ذلك سبيلاً .

وهذا يقودنا أخيراً إلى ما سبق ذكره عن كون دعوة ابن تـومرت نتاج صراع « سوسيو ـ سياسي » غمر العـالم الإسلامي بـأسره . وإذ أثبتنـا سلفـاً غلبـة المـد السني تعبيـراً عن انتصـار القـوي البـدويـة الطرفدارية الإقطاعية العسكرية ممثلة في الإمبراطـوريتين السلجـوقية والمرابطية ؛ فإننا نؤكد أن التجربة الموحدية عبرت عن موقف القوى البورجوازية كرد فعل لتسلط نقيضها .

وإذ أثبتنـا أن المذهب الشيعي الإسمـاعيلي شكـل جوهـر عقيدة

الموحدين بالإضافة إلى مذاهب المعارضة الأخرى من خارجية واعتزالية وزيدية ؛ نستطيع أن نجزم الآن بأن انهيار وسقوط السلاحقة والمرابطين قد تم بفعل تأثيرات الدعوةالإسماعيلية والدعوات الأخرى التي نهلت منها في الغرب الإسلامي كحركة المريدين في الأندلس وحركة الموحدين في المغرب .

ويمكن أن نسوق عدداً من البراهين والأدلة على صدق رؤيتنا التي نزعم جدتها وابتكارها ؛ على النحو التالي :

أولاً : أن ابن تومرت اتصل بالمريدين في الأندلس ودعاهم إلى الاستشاد في مقاومة المرابطين ـ كما أن المريدين كانوا وثيقي الصلة بابن تومرت بعد عودته من المشرق وبدء دعوته بالمغرب واستنجدوا به بعد أن ظفر بالمرابطين وقوض حكمهم في بلاد المغرب .

ثانياً : أن ابن تومرت كان على صلة بالباطنية الإسماعيلية في الشرق ، فقد وجدوا فيه بذرة صالحة لنشر دعوتهم في الغرب الإسلامي الذي كان لا يخلو من دعاتهم « كما ذهبت بحق إحدى الدارسات » (٤٧) .

ثالثاً : يؤكد ذلك جزم ابن عربي (٤٨) بأن دعاة الإسماعيلية كانوا ينصبون شباكهم لاصطياد القادمين من المغرب والأندلس لاحتوائهم وتسخيرهم في الدعوة لمذهبهم في الغرب الإسلامي ، وإنه أفلت من هذه الشباك إبان رحلته إلى الشرق .

رابعاً : أن ابن تومرت كان رجل سياسة قبل أن يكون رجل دين .

وأنه سخر الدعوة لا للاصلاح والتجديد بقدر تحقيق مشروع سياسي طموح . وأنه كان بوسعه أن يجد ضالته الفكرية في علماء الأندلس إنما رحل إلى الشرق لإحكام وإعداد مخططه السياسي الذي نسج خيوطه من قبل في الأندلس مع شيوخ المريدين كابن برجان . ولم يتورع عن الاتصال بالإمام الغزالي للإفادة من نصائحه وارشاداته لإضرام الثورة ضد المرابطين في المغرب والأندلس (٤٩) .

خامساً : أن المريدين في الأندلس عبروا عن القوى البورجوازية التجارية التي سلبها المرابطون دورها خاصة بعد الإستيلاء على المرية ، كما كانت مصمودة في المغرب الأقصى تعاني نفس المصير بعد سيطرة المرابطين على سلجماسة وتارودانت وتأسيس مراكش لتستقطب دورهما في التجارة عبر الصحراء (٥٠) . ومن ثم شكلت المصالح الإقتصادية جوهر اصطدام البورجوازية المغربية والأندلسية بدولة المرابطين الإقطاعية العسكرية . ولعل فيما سبق تبيانه من الوقوف على الانتماء الطبقي لابن تومرت وعبد المؤمن بن علي ما يؤكد صدق رؤيتنا .

سادساً : لعل في موقف ابن تومرت من أهل الذمة ما يضيف قرينة جديدة إلى ما سبق ، إذ عرف عنه اضطهادهم باستثناء الذين « ربطتهم به صلاة تجارية وخاصة اليهود » (٥١) .

سابعاً : ان استهداف المهدي بن تومرت بلاد المشرق وقيامه بالاحتساب في مصر وإفريقية ـ وهما خارجتان عن نفوذ المرابطين ـ ما يلقي أضواء على أن حركته لم تستهدف

المرابطين فحسب بل كانت ترنو إلى ما عداها من دول الشرق . وهو أمر يؤكد شمولية الصراع بين البورجوازية والإقطاع ليشمل العالم الإسلامي بأسره . وقد أورد المراكشي (٥٢) نصاً هاماً في هذا الصدد خاطب فيه المهدي أصحابه بقوله « لا يوجد على وجه الأرض مَن يؤمن إيمانكم ، أنتم العصابة المعنيون بقوله عليه السلام : لا تزال طائفة بالمغرب ظاهرين على الحق ولا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله . أنتم الذين يفتح الله بهم فارس والروم ولا يزال الأمر فيكم إلى قيام الساعة » .

وبالمثل نثبت شهادة ابن جبير الرحالة ـ وهو اسماعيلي باطني ـ حيث يقول : « لا إسلام إلا ببلاد المغرب ؛ لأنهم على جادة واضحة لا نبيات لها (انحرافات) . وما سوى ذلك مما بهذه الجهات المشرقية فأهواء وبدع وفرق ضالة وشيع إلا من عصم الله عز وجل . كما أنه لا عدل ولا دين على وجهه إلا عند الموحدين » .

على كل حال ـ أسفرت الدعوة الموحدية عن دولة إمبراطورية حققت وحدة المغرب الترابية لأول مرة بزعامات مغربية قحة . كما استطاعت أن تطرد النورمان من سواحل إفريقية ، وأن تتصدى للخطر النصراني في الأندلس ، وأن تضمها إلى بلاد المغارب . ناهيك عما ترتب على التوحيد السياسي من ازدهار اقتصادي وتجانس اجتماعي وتقدم فكري وإتمام لأسلمة الأمازيغ وتعريب بلاد المغارب .

لقد كانت التجربة الموحدية ـ بحق ـ إديولوجياً وسياسياً

وحضارياً صفحة مشرقة ليس فقط في تاريخ الغرب الإسلامي بل أيضاً في التاريخ الإسلامي العام . وكان انهيارها وسقوطها تعبيراً عن غلبة الإقطاعية المرتجعة المسؤولة عن انهيار الحضارة الإسلامية في الشرق والغرب على السواء .

الهوامش

(١) راجع :

Marcais . W . Comment L'afrique du nord à ete Arabisé .Annales de L'institut d'etudes Orient de . annee ,1938 . Tome 4 - p .3 .

(٢) Muir .W : The caliphate ,its rise , decline and Fall , Beirut ,1936 , p .4017.

(٣) راجع : محمود اسماعيل : الخوارج في بلاد المغرب . القاهرة ١٩٨٦ ص ١٠٩ - ١٨٣ ، مغربيات - دراسات جديدة ، فاس ١٩٧٧ ص ١٥ وما بعدها .

(٤) المرجع السابق . بحث بعنوان : المعتزلة في المغرب ص ١٢٠ وما بعدها .

(٥) عن مزيد من المعلومات عن دولة الأدارسة راجع كتابنا : مقالات في الفكر والتاريخ ، الدار البيضاء ، ١٩٧٨ ص ٤٨ وما بعدها .

(٦) عن مفاسد الحكم الفاطمي في المغرب راجع : سيرة الأستاذ جوذر ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص ١٤ وما بعدها ، محمود اسماعيل : مغربيات ، ص ٦٣ وما بعدها .

(٧) راجع للمؤلف : مقالات في الفكر والتاريخ ص ٨٥ وما بعدها .

(٨) راجع للمؤلف : بحث بعنوان « سياسة المرابطين الفكرية بين التأييد والتنديد » .

(٩) راجع كتابنا : مغربيات ص ٣٨ وما بعدها .

(١٠) مجهول : كتاب الاستبصار ، الاسكندرية ١٩٥٨ ص ١٩١ ، ١٩٢ .

(١١) راجع : ابن أبي زرع : القرطاس . طبع حجر ص ٨٨ .

(١٢) أنظر : مقالات في الفكر والتاريخ ص ٦٨ وما بعدها .

(١٣) المقدمه ص ٢٧ .

(١٤) عبد الله علام : الدولة الموحدية بالمغرب ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ٨٣ .

(١٥) نفسه ص ٥١ .
(١٦) راجع : كامل الشيبي : الفكر الشيعي والنزعات الصوفية . بغداد ١٩٦٦ ، ص ٢٢١ .
(١٧) المراكشي : المعجب ، ط . مصر ، ص ١١٥ .
(١٨) عن هذه القضية راجع : كتابنا : جذور الطائفية في العالم العربي .
(١٩) راجع التفضيلات في دراستنا السابقة عن « سياسة المرابطين الفكرية » .
(٢٠) راجع : سعد زغلول عبد الحميد : محمد بن تومرت وحركة التجديد في المغرب والأندلس ، بيروت ١٩٧٣ ، ص ٣٠ .
(٢١) وثائق موحدية ص ٣١ ، ٣٢ ، المراكشي : ص ١٢١ .
(٢٢) راجع : عباس الجراري : أبو الربيع سليمان الموحدي ، الدار البيضاء ١٩٧٤ ، ص ١٨ .
(٢٣) نفسه ص ١٩ .
(٢٤) أخبار المهدي بن تومرت ، الرباط ١٩٧١ ، ص ٧٨ .
(٢٥) وثائق موحدية ص ١١ .
(٢٦) المراكشي : ص ١٢١ .
(٢٧) نفسه : ص ١٢٥ .
(٢٨) العبر جـ ٦ ص ٢٢٦ ط . بولاق ١٢٨٤ هـ .
(٢٩) عباس الجراري : المرجع السابق ص ٣٣ .
(٣٠) سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ص ٢٨ .
(٣١) المراكشي : ص ١٨٨ .
(٣٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٢٩٤ .
(٣٣) عباس الجراري : المرجع السابق ص ٣٤ .
(٣٤) أعز ما يطلب ، ط . الجزائر ، ص ١٩٣ .
(٣٥) نفسه ص ٢٣٠ .
(٣٦) راجع : الفردبل : الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي ـ بنغازي ١٩٦٩ ، ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣ ـ ٢٧٦ .
(٣٧) عن مزيد من التفصيلات راجع : محمود اسماعيل : سوسيولوجيا الفكر الإسلامي جـ ١ ط . الدار البيضاء ١٩٨٠ ص ٢٠٣ وما بعدها .
(٣٨) أنظر : عباس الجراري ، المرجع السابق ص ٣٥ .

(٣٩) راجع : الشهرستاني : الملل والنحل حـ ١ ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٥٧ .
(٤٠) المعجب ص ١٢١ .
(٤١) أعز ما يطلب ص ٢٣٠ .
(٤٢) المرجع السابق ص ٣٤ .
(٤٣) أعز ما يطلب ص ٢٣٤ .
(٤٤) نخب تاريخية : نشر بروفنسال ، باريس ١٩٤٨ ص ٢٣٤ .
(٤٥) سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ص ٢٤ .
(٤٦) نفسه ص ٢١ .
(٤٧) راجع : عصمت دندش : الأندلس في نهاية عصر المرابطين وبداية الموحدين - رسالة دكتوراه - مخطوطة - ص ١٩ .
(٤٨) العواصم من القواصم ، مخطوط ، ص ٦٠ ، ٧٠ .
(٤٩) راجع نصوص من أبن الخطيب وابن الآبار توضح صدق هذه الرؤية ، في رسالة عصمت دندش سالفة الذكر ص ١٩ - ٣٧ .
(٥٠) راجع : محمود اسماعيل : مقالات في الفكر والتاريخ ص ٧٤ - ٧٥ .
(٥١) سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق ص ٣٠ .
(٥٢) المعجب ص ١٢١ .